الخطاب
هذا هو تصوفنا، وتلك هي دعوتنا

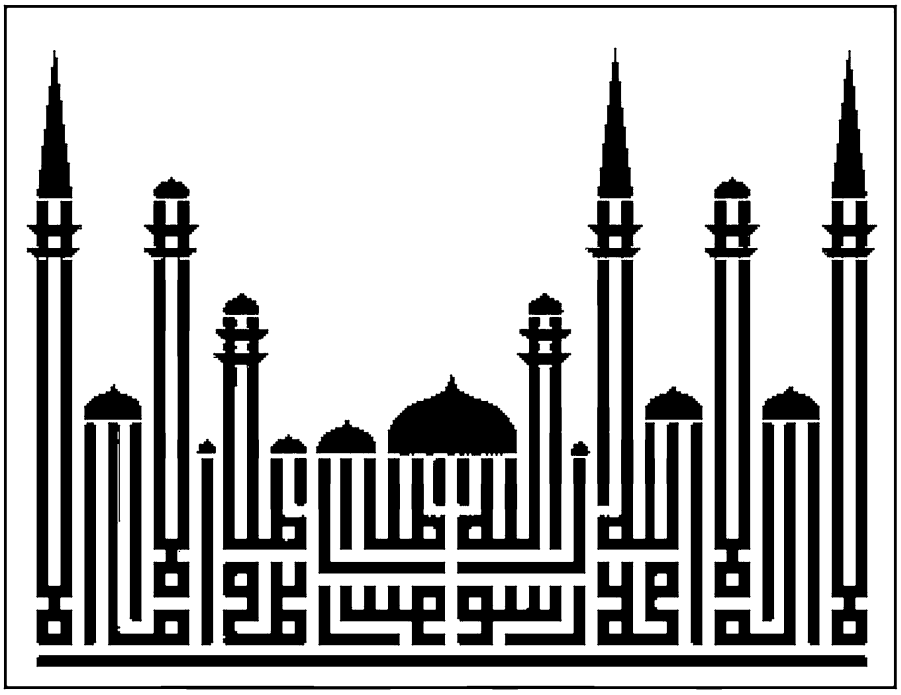

لا إله إلا الله .. محمد رسول الله

الطبعة السابعة

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

علق عليها

العلامة المحقق الشيخ

عبد الرحمن حسن محمود

رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة ص: الآية ٢٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

الطريقة المحمدية
صوفية سلفية شرعية

الخطاب

هذا هو تصوفنا، وتلك هي دعوتنا
ربانية الكتاب والسنة. عدلاً بغير إفراط ولا تفريط

صورة الخطاب الصوفي السلفي الشرعي التاريخي
الذي كتبه مولانا الإمام محمد زكي إبراهيم
رائد العشيرة وشيخ الطريقة المحمدية الشاذلية،
إلى أحد خواص مريديه.

دعـــاء

دعـا فضيلة مولانـا الإمام الرائد رحمـه الله تعالى لأحـد الأخوة في خطاب له فقال:

« أَذَلَّ اللهُ كُلَّ عَـدُوٍّ لَكَ إلا نَفْسَـكَ ، وجَعَلَ نِعْمَتَـهُ عَلَيْـكَ هِبَـةً لَـكَ لا عَارِيَـةً عِنـدَكَ ، وَأَعَـاذَكَ اللهُ مِـنْ بَطَـرِ الغِنَـى ، وذُلِّ الفَقْـرِ ، وفَرَّغَكَ اللهُ لما خَلَقَكَ لَهُ ، ولا شَغَلَكَ بما تَكَفَّلَ بِـهِ لَـكَ، وَأَعَاذَكَ مِـن الْعَجْزِ وَالكَسَـلِ ، وغَلَبَـةِ الدَّيْنِ وَالْمَـرَضِ ، وَجَعَلَ لِسَـانَكَ رَطِباً بِذِكْرِهِ ، وقَلْبَكَ حَيًّا بِشُـكْرِهِ ، وبَدَنَكَ هَيِّنًا لَيِّنًا في طَاعَتِهِ ، وزَيَّنَكَ بالْمَحَبَّـةِ ومَكَارِمِ الأَخْلاقِ » .

ونحـن ندعـو بهـذا لـكل أخ في الله يجيـب دعوة الداعي إذا دعاه .

أمانة الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

حمـداً لله، وصلاةً وسلاماً على مصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، في مبدأ الأمر ومنتهاه.

ورضي الله تعـالى عن أشـياخنا في الله، ورحم الله من سـبقنا من إخواننا إليه، ووفق أحياءنا إلى ما يحبه ويرضاه.

أمَّـا بعـد: فهذا خطاب صوفي جامع، كتبه شـيخنا الإمام الرائـد إلى أحـد كرام مريديـه، احتوى على دُررٍ مـن بديع البيان، وغُـررٍ مـن فيـض الرحمن، وقـد كان لـه دويّ بالغ في الأوسـاط الصوفية وغيرها.

وكان مـن فضـل الله تعـالى أن طبـع هـذا الخطـاب مـرات عديـدة، مفـرداً أو ملحقـاً بغـيره، ونـشر بالصحـف المصريـة عـلى حلقـات في شـهر رمضان المبـارك، كـما انتشر على الشـبكة العالميـة (الانترنـت)، وترجـم إلى اللغـة الإنجليزيـة[1]، ترجمـه

---

(١) الخطاب، وترجمته الإنجليزية، تم نشرهما على الموقع الإلكتروني:
www.almoslem.net

الأخ الفاضل الشيخ يوسف محيي الدين البخور الحسني، وترجم أيضاً إلى اللغة الفرنسية ترجمه الأخ الفاضل الأستاذ المرتضى[1]، ويقوم بعض الأخوة الصالحين بترجمته إلى (اللغة الأُردية).

وهذا الخطاب ليس إلا قطعة أدبية رائعة، تسري فيها روح حكم ابن عطاء الله السكندري، وتشم منها عبق رسالة الإمام الغزالي: (أيها الولد المحب)، احتوى على لطائف الرسالة القشيرية، وتأصيل (قواعد التصوف) للإمام أحمد زروق، وإيضاحات ابن عجيبة، فهو خطاب للرُّوح والوجدان.

والخلاصة - أيها الأخ المبارك - أنه خطاب جامع ممتع، فيه قواعد وفوائد، وإشراقات روحية ورقائق، وإشارات صوفية ودقائق، يستفيد منها العامة وأهل الاختصاص، وكلما كررت النظر وجدت المزيد.

ويجدر بك - أيها الأخ المبارك - أن تستوقفك تلك العبارة المُلهمَة المحببة إلى النفس « **يا ولدي** » التي تخللت مقاطع

---

(١) الترجمة الفرنسية للخطاب منشورة على الموقع الالكتروني:
www.islamophile.org/spip/article999.html

الخطاب وفصوله، والتي كثيراً ما كان يخاطب بها سيدي الأستاذ الإمام محمد زكي إبراهيم تلاميذه، والتي تجدها في كثير من كتاباته، وللعبارة أثرها الروحي، ووقعها النفسي، فهي تجمع معاني الأستاذية والإرشاد والتربية والتزكية، مع مشاعر الأبوة الحانية من تنبيه ونصيحة وتحذير، وخوف على التلميذ أو المريد، وتدل على صدقٍ وإخلاص وبذل، كلُّ تلك المعاني الجليلة تخرج في نفس واحد وكلمة واحدة، مما يوقظ الشعور، ويوثق الرابطة، ويهيئ النفس للتلقي والقبول.

وقد كانت نفسي تذهب بي كل مذهب كلما سمعتُ هذه الكلمة من شيخنا رحمه الله تعالى، وأحس أنها تخرج من أعماق قلبه، فكلما قال (يا ولدي) تترادف عليّ تلك المعاني جميعاً في صورٍ متتابعة، تشعرك بمزيد خصوصية، وبشيء من سر الاختصاص، يقف عنده من يتذوق معاني الكلمات.

وأحسب أن هذه الكلمة وأمثالها، تمثل في حد ذاتها، باباً عظيماً من أبواب التربية والسلوك، بل باباً عظيماً من أبواب الحياة الاجتماعية، والطب النفسي، وتربية النشء .

وهي من ميراث الصالحين، فها هو الإمام الغزالي يخاطب تلميذه بقوله « **أيها الولد المحب** » في كل مقطع من نصيحته المسماة بالرسالة الولدية، بينما نجد الشيخ نجم الدين كبرى في « فوائح الجمال وفواتح الجلال » يكرر قوله: « **يا حبيبي** »، بينما اختص سيدي عبد القادر الجيلاني بقوله: « **يا غلام** » في كتبه، ويُصَدِّر سيدي أحمد الرفاعي كلامه بقوله: « **أي سادة** »، وقبل هؤلاء جميعاً نجد القرآن الكريم قد سجل قول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف « **يا بني** »: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾، وقالها لإخوته: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾، ويبدأ بها لقمان وصيته لابنه: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، ويكررها لقمان في وصيته: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يجعلنا من عباده الصالحين.

وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ

عن أمانة الدعوة

محيي الدين حسين يوسف الإسنوي

خطاب صوفي جامع

من الإمام الرائد إلى أحد كرام مريديه

.....

يـا ولدي:

سـألتني عن التصوف الحقّ، وهـا أنا ذا - بإذن الله - أكتب إليك شيئاً مما يحضرني من (هوامشه)، وأُوَجِّهُكَ إلى بعض آفاق مشـارفه، لتتعرَّف على بعض حقائقه، فأنقـلُ إليك بعض ما قال رجالُه، وما بلَّغَني إليه حالُه، وما كان من فيض الحَقِّ جلَّ جلالُه. وقـد يفوتنـي التنسـيق والتزويق، ولكننـي أسـألُ الله ألاَّ يفوتني التحقيق والتوفيق.

« اللهُـمَّ إنِّي أَعُـوذُ بِـكَ أن أتَكَلَّفَ مـا لا أُحْسِـنُ، أو أقُـولَ مـا لا أَعْلَـمُ، أو أُمَـارِيَ في حَـقٍّ أعْتَقِـدُهُ، أو أُجَـادِلَ عـن بَاطِلٍ أنْتَقِـدُهُ، أو أَتَّخِذَ العِلْمَ صِنَاعَةً، أو الدِّينَ بِضَاعَةً، أو أَطْلُبَ الدُّنْيَا بنسْيَانِ رَبِّ الدُّنْيَا، أو أَعْمَلَ للآخِرَةِ رِيَاءً وزُوراً ».

يا ولدي:

قالوا: التصوفُ العملي تجربةٌ تصل بك إلى التذوق والصفاء والمشاهدة والوصول إلى سرِّ الذات[1]، والخلافة على الأرض، وسبيله: العلم والعبادة، فلا يغني عنك فيه سواك، فإنَّه لا يمكن أن يتذوق لك منه غيرك، كما لا يمكن أن ترى بعَيْن رَجُلٍ آخر.

فهل تستطيع أن تعرف طعم « التفاح » مَثَلاً دون أن تمضغه بالفعل؟ وهل يكفي أن تنظر إلى العسل، أو أن تعرف مكوناته لتتمتع بحلاوته، دون أن يحتويه الفم أو يعركه اللسان ؟.

وهل يمكن أن يتحقق الشبع، أو ينطفئ العطش بالتصور والخيال دون تناول الطعام والشراب، فعلاً وواقعاً؟ طبعاً: لا.

وكذلك لا يغني في هذه التجربة مجرد العلم، ولا تُوصِّل إليها دروبُ الفلسفة، فالعلم والفلسفة أعمال عقلية، وهذه

---

(١) ليس المقصود بسر الذات الإحاطة بكنه ذاته تعالى، معاذ الله ، بل المقصود معرفة الإنسان لذاته، فمن عرف نفسه بالعجز والافتقار فقد عرف خالقه بالقدرة والاقتدار، ومن عرفها بالضعف والذل عرف ربه بالقوة والعزة .. وهكذا. اهـ مصححه .

التجربـة من الأعمال القلبية الوجدانية، وشَـتَّان ما بينهما، غير أنَّ التعبـيرات الصوفية إذا عولجت بالإحسـاس والتعمق، والمعاناة والتـذوق، كانت قادرة على تغيير الباطـن الذي به يتغير الظاهر، فيولد الإنسان ولادة جديدة، كلها إشراقٌ وحبٌّ وبركة وإنتاج .. هكذا قال الشيوخ !

أمَّـا مجـرد قـراءة كتب التصـوف بـلا معاناة، فهـذه متعة ذهنية، وثقافة عقلية، وقد تشـارك فيها النفس الأمارة بالسوء، فتكون طريقاً إلى الضلالة طرداً أو عكساً .

أمَّـا المنح الرُّوحيـة، والإشراقات القلبيـة، فهي نتيجة الجهـود والأعـمال، فالصوفيـة أربـاب أحـوال، لا أصحاب أقوال، ولم ينل المشاهدة مَنْ ترك الْمُجَاهَدة .

يـا ولدي:

إنَّ التصـوف خدمـة تتكيـف بحاجـة كل عـصر، وكل إنسـان، وكل وطن، فهي تجسـيد شـامل لعملية الاستخلاف

عـلى الأرض، ثم إنَّ الهـدايـة أيضاً: جهـد ومعاناة، والشـيخ دليـل فقط، فمَنْ لـم يَسْـعَ لم يصل، ومَنْ لـم يلتمس المعارج لا يتسـامى ولا يرتقي، ومَنْ لم يتحرك لم ينتقل، ومن اعتمد على ما عنده وحـده اغترَّ، فتَاهَ وضَلَّ.

وفي ذلك أقــول[1]:

يقـول: هـل اتخاذُ الشَّـيْـ ـخ محتومٌ عـلى القاصِدْ ؟
فقلـتُ: وهـل تَربَّـى قـ ـط مولـودٌ بـلا والـد ؟
وهـل يُتْـمُ اليتيـم كفـا هُ فاسـتَغْنَى عن الرافِـدْ ؟
وهـل أَبـصرتَ مكـفـو فـاً ولا يحتـاج للقائـد ؟
وهل عِلْـمٌ، وهل فَـنٌ بغـير المُرْشِـد الرَّاشِـدْ ؟
وكيف يَسِـيرُ في الصّحـ ـرا غريبٌ ؟ أعزلٌ وافد ؟
وبـابُ الله مفتـوحٌ ولكن مَنْ هـو الرَّائِـدْ ؟
تأمَّـلْ مـا أتى « موسـى » وقصَّـتـه مـع العـابد
تأمَّلْ بعثـة « الهـادي » ففيهـا الشـاهد الخالـد

---

(١) ديوان البقايا، للإمام الرائد رحمه الله .

يا ولدي:

إنَّ نسبَكَ إلى الله أصَحُّ من نسبِكَ إلى أبيك .

ثُـمَّ إنَّهُ مَنْ استأذن على الله أَذِنَ له، ومن قرع بابه تعالى أدخله، ونحن إنما نشير إلى الحقيقة، ونُبَيِّنُ السبيل، ونَدَعُ المُريدَ الصادق ليصل إلى غاية الطريق بجهده، فليس شيخُكَ من سمعتَ منه، ولكن شيخك من أخذتَ عنه، ومَنْ جاهد: عَدَلَ، ومَنْ اجتهد: وَصَلَ .

يا ولدي:

الشَّريعةُ جاءتْ بتكليف الخَلْقِ، والحَقِيقَةُ جاءتْ بتعريف الحَقِّ .

فالشَّريعَةُ أن تَعْبُدَهُ، والطريقةُ أن تَقْصدَهُ، والحقيقةُ أن تَشْهَدَهُ .

ثُمَّ إنَّ الشَّريعَةَ قيامٌ بما أمر به وبصَّر ، والحقيقةَ شهودٌ لما قضى وقدَّر .

وهـذا رسولُ الله ﷺ : الشَّريعةُ أقوالُهُ، والطَّرِيقَـةُ أفعـالُهُ، والحقيقَةُ أحـوالُهُ.

فشريعَةٌ بـلا حقيقة: عاطلة، وحقيقةٌ بـلا شريعة: باطلة، ولهـذا قالوا: « مَنْ تـشَرَّع ولم يتحقَّق فقـد تعوَّق أو تفسَّـق، ومَنْ تحقَّق ولم يتشرع فقد تهرطَقَ أو تزندق ».

واعلـم - يـا ولـدي - أنَّ الشريعـةَ ليسـت إلا الحقيقـة، والحقيقـة ليسـت إلا الشريعة، فهمـا شيءٌ واحد، لا يتـمُّ أحَدُ جزأيه إلاَّ بالآخر، وقد جمع الحقُّ تعالى بينهُمَا، فمحالٌ أن يُفرِّقَ إنسانٌ ما جمـع الله .

ثُمَّ تأمل - يا ولدي -: قَوْلُكَ « لا إله إلاَّ اللهُ » هذه حقيقة، « مُحَمَّـدٌ رسُـولُ الله » هذه شريعة . فلو فـرَّق بينهما أحدٌ هَلَكَ، فإنَّ مَنْ رَدَّ الحقيقة: أَشْرَكَ، ومَنْ رَدَّ الشريعة: أَلْحَـد [1].

ثُـمَّ تأمَّـلْ قوله تعـالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُـدُ ﴾ تجد الشريعة، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ ﴾ تجـد الحقيقـة، وهمـا شيءٌ واحـد يسـتحيل طـرح

(١) والمشرك والملحد : كافران .

أحـد جزئيه .. عبـادةُ العـبد : ظاهـر الأمر، وإعانـة الله : باطِنُهُ، ولا بُدَّ لكل ظاهر من باطن، كالرُّوح في الجَسَد، والماء في العود.

الحقيقَةُ من الشَّريعَـةِ، كالثَّمَرَةِ من الشَّـجَرة، والأريج من الزَّهْرة، والحرارة من الجمرة، فلا بُدَّ من هـذه لتلك، فاستحال قيام حقيقة بغير شريعة.

يـا ولدي:

انظـر بعين عقلك وقلبك إلى هذا الدُّعَاء، الذي يناجي بـه أَحَدُ العارفين من أشياخنا ربَّه، فيقول:

« إلهي: إذا طَلَبْتُ منكَ الدُّنْيَا فقد طلبْتُ غَيْرَكَ (١).

وإذا سألتُكَ ما ضَمِنْتَ لي فقد اتَّهَمْتُكَ (٢).

---

(١) لأن الدنيـا كلهـا ملـك الله تعـالى، فكيـف يـترك المالـك ويطلـب المملوك ؟!

(٢) مـا ضمنـه الله تعـالى أشـياء كثيرة ، منها الـرزق ، وقد أقسـم الله تعالى أنـه حَـقٌّ فقـال: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾، وقـد سـمعها عـربي فقـال: « مَنْ أغضب رب العزة حتى أقسم ؟ ».

وإنْ سَكَنَ قلبي إلى غَيْرِكَ فقد أشْرَكْتُ بِكَ [1] !!

جَلَّتْ أوصَافُكَ عن الحُدُوثِ فكيف أكون مَعَك[2] ؟

وَتَنَزَّهَتْ ذاتُكَ من العلل، فكيف أكونُ قريباً بذاتي منك ؟!

وتعاليْتَ عن الأغيار، فكيف يكون قوامي بغَيْرِك ؟! ».

إنَّه كلامٌ كأنَّه صدىً مِن رُوح القُدُس، وكأنَّما اقتبسه الشيخ مِن ألحان الذين يحملون العرش، ومَنْ حوله، ومِن تسابيح الأرواح المهيَّمَة بآفاق الملأ الأعلى، كلامٌ فيه رائحة مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأَقباسٌ من أضواء سدرة المنتهى، وملامح من صدى الحقيقة والشريعة .

إنَّ التصوف - عندنا - هو « **علم فقه المعرفة** »، فهو تصحيح الإسلام، وتحقيق الإيمان، وتأكيد الإحسان[3].

---

(١) ومن سكن قلبه إلى غير الله فقد أشرك، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

(٢) لأن الحادث لا يكون معه إلا حادث مثله ، والمعية التي يقصدها الشيخ هنا المعية القلبية .

(٣) هي مراتب الحديث المعروف الذي ذكر فيه رسول الله ﷺ : « **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه** »، وهو حديث معروف مشهور بين أهل العلم .

ومـن هنا كان واجبـاً، لا يمكن تحصيله بمجـرد القراءة، ويبدو ذلك واضحاً في هؤلاء الذين يدرسون التصوف علماً، ولا يمارسـونـه عملاً!! وهم يحملـون أعلى الألقاب العلمية، وكان يسميهم والدي « عربات النقل البشرية » أو « سعاة بريد المعرفـة »، إنَّما التَّصوف رفعُ الأسـتار عـن أسرار الكونيات، لإدراك أنـوار شـموس الحقائـق، فلا بـد - مـع العلم - من المعاناة والممارسـة .

والتصـوف: **التقوى**، والتصـوف: **التزكية**، وهما مقام يجمع الخوف والرجاء، وينهض بالعقيدة والخُلُق، وبه تتحقق إنسـانية الإنسان، وإنَّه ما من آية في القرآن إلا وهي تربط الدُّنيا بالآخرة، وتجعلها وسيلة إليها، من باب التقوى وطريق التزكية .

ألـم يقـل الله تعـالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾، و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾. ألـم يكـن مِـنْ سِرِّ الرِّسَـالات: التزكيـة ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾.

نعـم: التَّصَـوفُ أدب، والعقيـدة أدب، والعبـادة أدب، والمعاملة أدب.

وهنا يصل العبد إلى رتبة (الربَّانية) بالعلم والدرس والممارسة: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

يا ولدي:

الصُّوفيُّ أكثرُ من « فقيه »، فالفقيه وقف عند الأقوال [1]. والصُّوفيُّ أكثرُ من « عابد »، إذ العابِدُ وقف عند الأعمال . أمَّا هو فقد جَمَعَ بينهما، فأثمر « الأحوال ».

والصُّوفيُّ أكثرُ من « زاهد »، إذ الزاهد في الدنيا زاهِدٌ في لا شيء. أمَّا الصُّوفي فلا يزهد إلا فيما يحجبه عن الله، وبهذا يجعل الدنيا في يده، لا في قلبه.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله تبارك وتعالى، وهو أحد تلاميذ ابن تيمية رحمه الله تبارك وتعالى، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [الآية ١٨ من سورة المائدة]: « وقال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟! فلم يرد عليه؛ فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾، وهذا الذي قاله: حسن » ... إلى آخر ما قال رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، فراجعه هناك لتستفيد .